إلى أنه حرره من هذه القيود الصناعية، وعاد به إلى أصالته الأولى تعبيرا حرا عن نفس صاحبه وعقله وحياته وتجاربه فيها، وعن عصره الذى يعيش فيه ومتغيراته الجديدة ، وأعاد إليه حريته الطبيعية وأصالته الأولى وتوابته الخالدة، ولكنْ فى ثياب جديدة نسَجَتْها خيوط عقلية معقدة غزلها من المواد الثقافية المتعددة المصادر التى استوعبها فى أعماقه ، من هنا كان تجديد المتنبى وكانت المعاصرة فى شعره ، فلم يكن صورة طبق الأصل من التراث القديم ، وإنما كان صورة جديدة لها ألوانها المتميزه التى لا يخطئها أحد مما تقدِّمه من شخصية لاتتشابه مع غيرها من الشخصيات. ومن خلال هذه الشخصية المتميزة خرج المتنبى على الشعر العربى بالقصيدة البدوية الحضرية التى تمثل انعكاساً صادقاً للمزاج الغريب الذى عاشت هذه الشخصية فى أعماقه، بين عقل الحضرى المثقف الواسع الثقافة ومزاج البدوى فى أصالته الفطرية وتراثيته الأصيلة ، هكذا كان دور المتنبى فى تاريخ الشعر العربى القديم ، وهكذا كان دور البارودى فى تاريخ الشعر العربى الحديث ، خرج كلاهما بهذه القصيدة البدوية الحضرية ، والبارودى يصرح بهذا فى بعض شعره حيث يصف قصيدته بأنها :

حَضرية الأنساب إلا أنهـــا بَدوِيـة فى الطبع والتركيبِ

ومن هنا يبدو البارودى فى تاريخ الشعر العربى صورة من المتنبى ، لا صورة من بشار أو حسان كما يخيل لبعض الباحثين ، فالبارودى - كالمتنبى - مَثَّلَ ثورة فى تاريخ الشعر العربى ، أما حسان وبشار فقد مَثّلا تطوراً فى تاريخ هذا الشعر .

ظهر البارودى فى عصر كان كل مافيه يتطور ويتحرك فى ظل « الإعلان الحضارى » الذى أطلقه إسماعيل لتكون مصر قطعة من أوربا ، وكانت ظروف العصر كلها قد تهيأت لهذا التطور الحضارى البعيد المدى - ظهور المطبعة والصحافة ، وانطلاق البعثات العلمية إلى أوربا لتعود إلى مصر بالعلم